The West in the Thought of Mehammed Iqbal

يموتن علجية[1]

ملخص المقال :

تناولت الدراسة نقد محمد إقبال (1879-1938) للحضارة الغربية وموقفه من الآخر الغربي، فمحمد إقبال يعد من الأوائل الذين تنبهوا إلى ما يعتري الفكر الغربي من نقص وعيوب، والى ما يلف الحضارة الغربية من مادية والحاد وتوحش.

من نتائج الدراسة:

- اقبال قدم قراءة موضوعية الفكر والحضارة العربية بعيدة عن الانبهار بالغرب يؤكد فيها ان:
- الفلسفة اليونانية تمجد المعرفة العقلية وتحط من شأن المعرفة الحسية والمعرفة القلبية
- الفلسفة الحديثة والتي لم تكن بأفضل حال من الفلسفة اليونانية لأنها وان أعادت الاعتبار إلى المعرفة الحسية لكنها انتهت إلى مادية صرفة جردت الإنسان من أهم جانب فيه وهو الجانب الروحي.
- من أهم خصائص الحضارة الغربية: اللادينية والمادية والنزعة الاستعمارية.

كلمات مفتاحية: الحضارة الغربية، الفلسفة اليونانية، الفلسفة الحديثة، الاستعمار المادية

Abstract

his study examines Muhammad Iqbal's (1879-1938) critique of Western civilization and his stance on Western thought..

Study Findings :

- Iqbal provided an objective analysis of Western thought and civilization, free from blind admiration, emphasizing that :
  - Greek philosophy glorified rational knowledge while undermining sensory and spiritual knowledge.

(1) جامعة وهران 2، الجزائر

- Modern philosophy, despite restoring the value of sensory knowledge, ultimately led to pure materialism, stripping human beings of their most essential aspect—the spiritual dimension.

- According to Iqbal, the most prominent characteristics of Western civilization are :

Secularism. Materialism. Colonial tendencies

Keywords: Western civilization Western thought Greek philosophy. Materialism

مقدمة:

محمد إقبال علم من الأعلام البارزين في العصر الحديث ورائد من رواد النهضة الإسلامية الحديثة نهل من التراث الإسلامي، كما تشرب من الفكر الغربي دون أن ينسلخ عن دينه وحضارته، ولقد أتاحت له فترة مكوثه الطويلة في أوروبا معرفة الحضارة الغربية عن كثب، فدرسها وسبر أغوارها فأصدر حكمه عليها بأنها: " حضارة مادية، لا قلب لها ولا روح فيها "، وجدير بالذكر أن إقبال لم يكن جاهلا بالحضارة الغربية ولم ينقدها لغيرة دينية أو نزعة قومية وإنما نقدها بعد أن نهل من معينيها ونال فيها أعلى الشهادات.

ونقد محمد إقبال للفكر وللحضارة الغربية نجده في كتابه" تجديد الفكر الديني في الإسلام" والذي يؤكد فيه أن المسلمين لا يمكن أن يجدوا سعادتهم في الحضارة الغربية ف" الحضارة التي أشرفت على الموت لا يمكن أن تحيي غيرها" لذلك يرفض الدعوة إلى التماهي مع الغرب (وهي الدعوة التي تبناها تيار عريض في الفكر الإسلامي الحديث) ويدعو إلى بناء الذات الإسلامية ويحث المسلمين أن يكونوا مؤمنين بذاتيتهم.

صورة الغرب في فكر محمد إقبال مرت بمراحل عدة قبل أن تأخذ شكل النقد الحاد للآخر الغربي. ففي البداية تأثر إقبال بالفكر السائد في أوروبا حيث عاش مرحلة من عمره، وعاصر تطور العلوم والآداب والفلسفة فيها وتعرف على أنظمة الحياة الغربية وقيمها، حتى أنه لشدة إعجابه بما رأى راح يدعو المسلمين إلى الاقتباس منها، لكن في النهاية توصل إلى قناعة تامة بأن هذا الآخر لا يمكن أن يمدني بأسباب النهوض بل انه يحمل في ذاته بذور فنائه.

في هذا البحث نحاول أن نكشف عن نظرة محمد إقبال إلى الآخر الغربي في فلسفته ومدنيته والتعرف على أرائه النقدية حول المباني الأساسية لحضارة الغربية والعيوب البنيوية التي تعتريها. والإفادة من التراث الفكري الذي خلفه إقبال فيما له علاقة بموقفه النقدي من الغرب.

1. موقف الفكر الإسلامي الحديث من الغرب

تباين حضور الغرب في خطاب الإسلامي الحديث، بين من يدعو إلى الاقتباس عن الغرب ومن يدعو إلى القطيعة معه، ومن حاول أن يقف موقفا توفيقيا، وارتبط بإشكالية النهضة وهي الإشكالية المحورية في الفكر العربي الحديث، ففي الوقت الذي كان فيه العالم العربي الإسلامي يعاني التخلف والانحطاط، كانت أوروبا قد قطعت أشواطًا بعيدة في طريق العلم والتقدم، في ظل هذا الوضع طرحت الأسئلة الآتية: لماذا تأخرنا نحن العرب، وتقدمت أوروبا؟ كيف ننهض ونلحق بأوروبا؟ ماذا ينبغي أن نأخذ من الغرب؟ وما يجب أن نترك؟

بداية مع الطهطاوي الذي يعرض أفكاره في الإصلاح والتجديد من خلال العديد من المؤلفات، ولعل أبرزها كتابه "تخليص الأبريز في تلخيص باريز، الذي يصف فيه المجتمع الفرنسي، فيصف مؤسساته وعاداته وتقاليده، ويقدم فيه صورة عن المجتمع الليبرالي الحر الذي يقوم على العدل والمساواة، وهو النموذج الذي ينبغي أن يحتذى لمن يعاني الجمود والتخلف. ويركز الطهطاوي على أهمية المعرفة، معتقدًا كغيره من رواد النهضة أن سبب قوة أوروبا وتقدمها هو اعتمادها على العلوم فدعا إلى اقتباسها مؤكدًا أن الأخذ عن الغرب ليس سوى استرجاع ما كان للعرب فيما مضى «ذلك أن العلوم العلمية التي تظهر أنها أجنبية هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية. (الطهطاوي،1973، الصفحة 534)

وفي اتجاه الطهطاوي نفسه سار خير الدين التونسي(1810-1890) وهو يشخص أسباب التخلف العربي، مستفيدًا من الروافد نفسها التي وقف عليها الطهطاوي، ولعله كان أكثر حرصاً منه في الدعوة إلى اقتباس التنظيمات الدنيوية عن الغرب
(التونسي خير الدين، 1993الصفحة 92، 93.)"المؤسسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثورة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم ". ويؤكد أن الإعراض عن التنظيمات الدنيوية الغربية التي كانت سببًا في تقدم أوروبا من شأنه أن يسد الطريق أمام تقدم المسلمين، (التونسي خير الدين، 1993الصفحة 88.)؛" فإن الأمر إن كان صادرًا من غيرنا وكان صوابًا موافقًا للأدلة... فلا وجه لإنكاره وإهماله... وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه، قولاً كان أو فعلاً ، فإن وجده صوابًا قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم، فليس بالرجال يعرف الحق، بل بالحق يعرف الرجال، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ".

هذه الدعوة إلى الاقتباس ستبلغ مداها عند دعاة التغريب في الفكر الإسلامي الحديث الذين ارتبط التغريب عندهم بنبذ الشرق والعرب والإسلام، والارتباط بأوروبا والتبعية لها، فكانت دعوة طه حسين (طه حسين، 1993الصفحة 41) " أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب ،تلزمنا القوة العسكرية، كما يلومنا الاستقلال العقلي والنفسي، ووسائل كل ذلك أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، لنشعر كما يشعر الأوروبي ، ولنحكم كما يحكم الأوروبي، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ونصرف الحياة كما يصرفها ". وفي مقابل هذا الاتجاه التغريبي الذي دعا إلى التماهي في الغرب نجد اتجاه أخر يدعو إلى القطيعة مع الغرب وذلك لاستحالة التقاء الإسلام مع الحضارة الغربية، فيقول أبو الأعلى المودودي (1903-1979) واصفا الحاضرة الغربية أنها (أبو الأعلى المودودي ، الصفحة 14.15) " حضارة لا دينية بحتة، لا مجال فيها لمخافة إله في السماء عليم قدير، ولا وزن فيها للنبوة أو وحي والهام ... فكأن الإسلام والحضارة الغربية سفينتان تجريان في جهتين متعاكستين، فمن ركب إحداها هجر الأخرى، ولابد، ومن أبى إلا أن يركبهما في الوقت الواحد فاتتاه معاً، وانشقَّ بينهما نصفين"

2-موقف محمد إقبال من الفكر الغربي

1.2 الموقف من الفلسفة اليونانية

منذ دخول الفكر اليوناني إلى بلاد المسلمين وهم منقسمون حوله، قسم أقبل عليه وترجمه وشرحه وزاد عليه، وقسم رفضه وكفر المنتسبين إليه، وفي الفكر الإسلامي الحديث كذلك اختلفت أراء المفكرين في الفلسفة اليونانية، قسم يرى أن المسلمين استفادوا من الفلسفة اليونانية وأنها كان لها الأثر الكبير في ازدهار الفلسفة الإسلامية، وقسم عمل على بيان الأثر السلبي لهذه الفلسفة، خاصة على مستوى العقيدة، حين تم اعتماد الفلسفة والمنطق منهجا في تقرير الحقائق المتعلقة بالعقائد.

محمد إقبال وان كان يؤكد على دور الفلسفة اليونانية وأثرها في توسيع النظر العقلي في المدارس الفكرية والفقهية الإسلامية، غير انه يجزم أن روح الثقافة الإســـلامية الواقعية بعيدة تماما عن روح الفلســـفة اليونانية القائمة على النظر و التجريد، فروح القرآن التي تتجلى فيها النظرة الواقعية وإشـــادة بالإدراك الحســـي؛ تتعارض مع الفلســـفة اليونانية التي تتميز بالنظر المجرد وإغفال الحس ، وهنا يوجه إقبال نقده لســـقراط وتلميذه أفلاطون في قدحهم للإدراك الحسي لأنه في رأيهم لا يوصل إلى اليقين، ويقول (اقبال ، 1967 الصفحة 9): " وما أبعد هذا عن تعاليم القرآن، الذي يعد السمع والبصر أجل نعم الله على عباده وسوف يسألهما في الآخرة عما فعلا في الدنيا ".وكثيرا ما كان إقبال ينقد أفلاطون في مذهبه في عالم الحس وعالم المثل، وقوله أن الحقيقة في عالم المثل، وما عالم الحس إلا خيالات، فيرى أن مذهب أفلاطون هذا دعوة إلى الفناء وترك العمل والفرار من الدنيا، في حين يدعو الإســـلام إلى العمل وتســـخير عالم المادة لتحقيق قوته وكماله ويقول: (محمد إقبال،2014، الصفحة 27)

راهب الماضين افلاط الحكيم من فريق الضأن في الدهر القديم

طرفه في ظلمة المعقول ضل في حزون الكون قد أعيا وكل

فكره في غير المحسوس فتن صد عن عين وكف وأذن

قال في الموت بدا سر الحياة في خمود الشمع يزداد سناه

عالم الأشياء سماه هراء وعلت أفكاره فوق السماء

فكره يغفي ورؤيا يخلق غينه تبصر إلا يبرق

هلك أقوام بهذا الثمل حرموا بالنوم ذوق العمل

ولا يتوقف إقبال عند بيان مخالفة روح الثقافة الإسـلامية للروح اليونانية، وإنما يعمل على إبراز الآثار السـلبية للموروث اليوناني، خاصـة عند العلماء الأوائل الذين افتتنوا به، فادخلوه إلى مجال العقيدة والدرس القرآني، وقرأوا القرآن على ضـــوئه، ولم ينتبهوا انه يعارض جوهر القرآن وروحه، وهذا أبعدهم في رأي إقبال عن فهم القرآن ويقول(محمد إقبال،1967 الصـــفحة 8) "إن الفلســـفة اليونانية على ما نعرف جميعا كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسـلام، ولكن التدقيق في درس القرآن الكريم، وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسـهم التي نشـأت ملهمة بالفكر اليوناني؛ يكشـفان حقيقة بارزة وهي أن : الفلســفة اليونانية مع أنها وسَّــعت آفاق النظر العقلي عند مفكِّري الإسلام، فقد غشت على أبصارهم في فهم القرآن"

ومن الأمثلة التي يسوقها إقبال في كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام) مبيناً الآثار السلبية للفكر اليوناني على الفكر الإسلامي استخدام المتكلمين المسلمين لمفاهيم وتحديدات يونانية رغم بعدها عن روح القرآن، من هذه المفاهيم مفهوم النفس كما ساد عند المتكلمين البعيد عن مفهوم القرآني للنفس الإنسانية وفرديتها وحريتها وخلودها المفعم بالقوة ويقول (محمد إقبال،1967 ، الصفحة 109):"انه مما يثير العجب أن نرى أن وحدة الشعور الإنساني وهي مركز الشخصية الإنسانية لم تكن قط موضع اهتمام جدي في تاريخ الفكر الإسلامي، فالمتكلمون اعتبروا النفس جوهرا لطيفا، أو مجرد عرض يفنى بفناء الجسد ثم يخلق مرة أخرى يوم الحشر"

ومن الآثار السلبية للفكر اليوناني خاصة الأفلاطوني منه ما نجده عند بعض المتصوفة من دعوة إلى ترك الدنيا والفرار من الحياة والتواكل وإماتة النفس وإذلالها حتى تفنى في الله، وهذا معلوم انه يخالف فلسفة إقبال الذاتية ويقول:" إن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة للمسلم، فقد كانت حياته خير مثل للسعي الدائم، لقد كانت حياته كلها صورة للعمل " (محمد إقبال، 2014،الصفحة 21)

ويتحدث إقبال عن الثورة العقلية للعلماء المسلمين على الفلسفة اليونانية، فانبهار المسلمين في بداية احتكاكهم بالفكر اليوناني ـــ والذي دام قرنين من الزمان ـــ تراجع بعد أن أدرك المسلمون مخالفة النظر اليوناني الذي تهيمن النظرة التأملية التجريدية للنظر الإسلامي، وتتجلى هذه الثورة على الفلسفة اليونانية بوضوح عند ابن تيمية وشهاب الدين السهروردي وغيرهما في نقدهم للمنطق الأرسطي. ولقد شملت هذه الثورة كل المجالات: في الرياضيات والفلك والطب والفلسفة والتاريخ، قطع بها المسلمون مع التفكير اليوناني النظري المجرد وأبدعوا منهجا جديدا في البحث يقوم على الملاحظة والتجربة.

ويستطرد إقبال في ذكر الأمثلة من التراث الإسلامي يؤكد بها أن قطيعة المسلمين مع التفكير اليوناني المجرد واتجاههم إلى التفكير التجريبي هو الذي ساهم في وضعهم للمنهج التجريبي، فيسوق لنا الأدلة التي تثبت ذلك منها الإسهامات العلمية للبيروني وابن الهيثم وابن خلدون وغيرهم، وبهذا يفند إقبال الرأي القائل أن الأوربيين هم من استحدثوا المنهج العلمي التجريبي، بل يؤكد أن المنهج التجريبي عند الأوربيين إنما جذوره إسلامية ويقول: (محمد إقبال،1967 . الصفحة149):"ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله في علوم؟ من الجامعات الإسلامية في الأساس، والقسم الخامس من كتاب cepus maius الذي خصصه للبحث في البصريات هو في الحقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم".

ويخلص إقبال في الأخير إلى ما كان يرومه منذ البداية في نقده للفلسفة اليونانية وهو استئصال" تلك الفكرة الخاطئة التي تزعم أن الفكر اليوناني شكَّل طبيعة ثقافة الإسلام" (محمد إقبال،1967 تجديد الفكر الديني، ص 151)، وكما هو معلوم فان هذه الفكرة التي يسعى إقبال إلى استئصالها هي فكرة استشراقية، تنطلق من نزعة المركزية الأوربية تدعي أن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا فلسفة يونانية في ثوب إسلامي، فتمحو عنها بذلك الخصوصية والأصالة.

2.2 موقف إقبال من الفلسفة الحديثة

إن خبرة إقبال بالفكر الغربي مكنته من نقد وتقويض الكثير من نظرياته، وان كان في مراحله الأولى التي عاشها في أوروبا قد تأثر بالفلسفات والآداب الغربية، وبالشعراء الألمان على وجه الخصوص، كغوته و وود زوث وهيجل،كما يشهد بنفسه على ذلك في قوله(حسن حنفي: 2009،الصفحة، 411): "لا بد من أن أعترف بأنني قد استفدت كثيراً من هيغل وغوته والميرزا غالب وعبد القادر بيدل ووليام ورد زورث.

هيغل وغوته ساعداني في الوصول إلى باطن الأشياء، أما بيدل وغالب فعلَّماني أن يبقى عندي روح الشرق في أساليب التعبير رغم اكتساب الكثير من الأساليب والقيم للشعر الغربي، وأما ورد زورث فهو الذي أنقذني من الإلحاد حين كنت طالباً

والحق أن إقبال كان معجبا بالفلاسفة الأدباء من أمثال نيتشه، وخاصة في فلسفته في الحياة والقوة ونظريته عن السوبرمان، ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والعلم لا العشق، ولم يعرف التوحيد، آمن عقله دون قلبه ويقول (إقبال ،،2017، الصفحة 69)

:

أي قدر لذا الحكيم ولكن لم يكن أهل نكتة التوحيد

ليس إلا لذي البصيرة يبدو سر معنى ب "لا إله" بعيد

أرسل الفكر أسهما في سماء وحوى الشمس بالخيال المدي

ويرد على الذين قالوا أنه أخذ نظريته في الإنسان الكامل من نظرية نيتشه في السوبرمان، ويقول أنه (عبد الوهاب عزام،الصفحة 126)

"كتب قبل ثلاثين سنة مقالا عن الإنسان الكامل عند الصوفية، ولم يكن حينها اطلع على كتب نيتشه ولا سمع اسمه "

فمن الملاحظ أنه قد حاول العديد من الباحثين التقريب بين أراء إقبال ونيتشه، لكن ما بين نظرية السوبرمان لنيتشه ونظرية الإنسان الكامل عند إقبال بون كبير ، (خليل عبد الرحمن عبد الرحمن ، 1405هـ ،الصفحة 166.167) " فلا مجال للمقابلة بين الرجل المتفوق لنيتشه والرجل المؤمن لدى إقبال في ميزان الحق والإنسانية والحب والجمال ، فان الرجل المتفوق معجب بنفسه، معتز بكرامته دون أن يرجع لمبدأ أخلاقي، وهو ملحد بالدين، ومنكر لأداء وجباته اتجاه المجتمع، وأصبحت الحياة عنده أشبه بميدان قتال وعنف، بينما الإنسان المثالي عند إقبال فيه اعتداد بالنفس واعتزاز بالذات مع الإخلاص والخضوع والإذعان الملازم للتأكيد والإصرار على الحق والعدل ... فلسفة نيتشه مادية بحتة ملحدة ... بينما فلسفة إقبال إسلامية مقرة بمبادئ الأخلاق والروحانية "

ويعرج إقبال على الفلاسفة الغربيين مثل لوك وبركلي وديكارت وكانط وبرغسون ــ وانطلاقا من رؤيته الفلسفية المستنبطة من القرآن والتي تجمع في الإدراك بين العقل والتجربة الحسية والتجربة الروحية ــ يقدم نقداً صارماً لأصحاب الفلسفة التجريبية مثل لوك، الذي يذهب إلى أن العقل يولد صفحة بيضاء، وأن المعرفة تأتي من التجربة الحسية، ويصفه بأنه(إقبال ، 2017، الصفحة 102) "فارغ الكأس يريد أن يملأ الأكواب من شمس الضحى "

كما يرفض زعم العقليين أن العقل وحده مصدر المعرفة، وكان ناقدًا للفلسفة الديكارتية، التي تركز على العقلانية المفرطة، والانفصال بين الذات والموضوع، ويرى الديكارتية أسست الفلسفة الحديثة على الشك العقلي، وجعلت التفكير هو أساس الوجود " انأ أفكر إذن أنا موجود"، بينما يؤمن إقبال أن التجربة الروحية والوعي الذاتي أكثر أهمية من مجرد التفكير العقلي المجرد.

وفي نقده لأدلة وجود الله في الفلسفة الغربية يتوقف عند دليل الوجود عند ديكارت ونصه (إقبال ،1967، الصفحة 38): " إن القول بأن صفة ما تنحل في طبيعة شيء أو في مفهومه يُساوي القول بأن هذه الصفة تصدق على هذا الشيء، وأنه يُمكن أن تُوطد وُجودها فيه، ووُجوب الوُجود داخل في ماهية الله أو في مفهومه وعلى هذا يمكن بحق أن تُؤكّد صفة الوجود الواجب لله وأن الله موجود". ويُضيف ديكارت إلى هذا الدليل دليل الكمال حيث نجد في عقولنا فكرة الكائن الكامل، لكم ما مصدر هذه الفكرة، ويجيب (إقبال، 1967، الصفحة 28): " لا يمكن أن تكون قد أتت من الطبيعة لان الطبيعة لا يمكن أن ترينا شيئا سوى التغير، فهي لا تستطيع أن تخلق فينا فكرة الكائن الكامل، فلابد إذن من وجود. شيء خارجي مقابل للفكرة الموجودة في عقولنا، يكون هو السبب في وجود فكرة الكائن الكامل في عقولنا".

ويشيد إقبال بموقف كانط الرافض لجميع هذه الأدلة العقلية في إثبات وجود الله، وينقل نقده الذي يقول فيه " إن المعنى الموجود في عقلي عن المائة دولار لا يمكن أن يدل أنها موجودة في جيبي، وكل ما يدل عليه هذا الدليل أن فكرة الكائن تتضمن فكرة وجوده، وبين فكرة الكائن الكامل الموجودة في عقلي و الوجود المتحقق في الخارج لهذا الكائن هاوية لا يمكن عبورها بمجرد تفكير نظري بعيد عن الوجود الواقعي، والدليل

كذلك مصادرة على المطلوب فهو "يسلم بالمطلوب نفسه وذلك بالانتقال من الوجود المنطقي إلى الوجود الخارجي، (إقبال، 1967، الصفحة 93) " إن العقل الذي لا يرقى إلى معرفة الحقيقة النهائية في نظر إقبال لا يمكن أن يقيم دليلا على وجود الله، إن اكبر دليل على وجود الله إنما هو الوحي".

وحتى برغسون الذي ركّز على أهمية الحدس في عملية الإدراك لم يسلم من نقد إقبال، فان كان وافقه على أهمية الحدس، لكنه لم يبعد العقل من عملية الإدراك، بل إن العقل والحدس والإيمان يجب أن يعملوا معا للوصول إلى الحقيقة.

ما ينبغي الإشارة إليه أن إقبال بنقده للفلسفة الغربية ــ والتي شهدت انتشارا واسعاً في العالم الإسلامي في وقته ــ أراد أن يكشف للمتأثرين بتلك الفلسفات، عيوبها ونقائصها، وهو الذي آمن أن التجديد ويقظة المسلمين لا بد أن يصاحبها نقد للفكر الغربي، (الندوي، 1983، الصفحة 16) " لا بد أن يصاحب يقظة المسلمين تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي توصلت إليها أوروبا أن تعيننا في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وعلى بنائه من جديد إذا لزم الآمر ".

3موقف محمد إقبال من الحضارة الغربية

كما ظهر في الفكر الإسلامي تيار من المنبهرين بالحضارة الغربية وهو التيار الذي لم يتصور يقظة المسلمين وخروجهم من حالة الجمود والتخلف إلا بالاستفادة من منجزات الحضارة الغربية وتماهي فيها ، ظهر تيار معارض ناقد لها، عمل على إبراز نقائص وعيوب حضارة الغرب والتأكيد أن النهضة المسلمين لا يمكن أن تكون إلى برجوع إلى دينهم وتراثهم، ويعد إقبال من رواد الفكر الإسلامي الذين قدموا نقدا للحضارة الغربية، يقول الندوي(الندوي ،1983 ،الصفحة 81) : " لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال، الذي يعتبر بحق أنبغ عقل أنجبته الثقافة الجديدة، التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل، وأعمق مفكر أنتجه الشرق في عصرنا الحاضر، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه ـ على كثرة من أم الغرب منهم ودرس هناك ـ احد نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق وانتقدها هذا الانتقاد الجريء"

ويعتز إقبال بانتمائه إلى الأمة الإسلامية، وأن وهج الحضارة الغربية لم يؤثر فيه، فيقول (إقبال،2007، الصفحة 473):

بريق الحضارة أوج الترف لدى الغرب لم يستطع فتني

أنا ابن المدينة وابن النجف غبارهما كان في مقلتي

بل يذهب إقبال إلى أن الحاجة ملحة اليوم لنقد الحضارة الغربية، فان عملية التجديد وإعادة بناء الفكر الإسلامي لا بد إن تكون على أسس قوية، تستند إلى الإسلام في جوهرها، بحيث لا يكون المسلم فيها تابعا مقلدا لأي ثقافة أخرى، ويقول (إقبال،1967، الصفحة 14): "لا بد أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، والكشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا به على إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام.

1.3نقد مادية الحضارة الغربية

في نقده للحضارة الغربية يركز إقبال على الأساس المادي الذي قامت عليه هذه الحضارة، وموقفها من الدين، وهذا راجع في نظره إلى تغلل أفكار هيجل وماركس وداروين، وما نتج عن ذلك من الحاد وننزع القداسة عن المعاني الغيبية، وقصورها عن تقديم إجابة عن أسئلة الإنسان

الوجودية، رغم ما بلغته من تقدم تكنولوجي، فالحضارة الغربية رغم تفوقها في العلوم والتكنولوجيا، وانفصلت عن القيم الروحية التي تمنح الحياة معناها الحقيقي. يقول إقبال واصفا إياها (إقبال، 2017 ، الصفحة 39):

ووجود الإله عندك ريب وارى الريب في وجودك أنتا

إنما الكون جوهر " الذات" يجلى فانظرن أي جوهر دفنتا

وعلى هذا الأساس المادي أسس الغرب نظامه الأخلاقي والسياسي والاجتماعي، فأقام نظامه الأخلاقي على فلسفة نفعية، (خليل عبد الرحمن، 1405هـ، الصفحة 220)، " فالحلال والحرام والخير والشر تتحدد وتتعين بمقاييس المصالح والمنافع واللذات " .وحين تسود القيم النفعية في المجتمع لن يبقى هناك مجال للقيم الإنسانية والشهامة والمروءة، يقول إقبال (خليل عبد الرحمن، 1405هـ ، الصفحة 283) "فحكومة الآلات تميت القلوب وتقتل شعور الإنسانية والمروءة، فالإنسان الغربي المادي قلبه ميت وضميره مجرم وروحه مظلمة ".

وكذلك نظامه السياسي الذي أقامه على: (خليل عبد الرحمن، 1405هـ، الصفحة 220) " مبادئ ثلاث: اللادينية والقومية والديمقراطية بنوعيها الليبرالية والاشتراكية فالمراد بالمبدأ الأول انه لا علاقة للدين وتعاليمه بشؤون الإنسان السياسية والاجتماعية، فإنها ترجع إلى الناس أنفسهم والمراد بالمبدأ الثاني أن يحل الشعب محل الألوهية، ولا يكون للخير والشر من المقاييس إلا مصالح الشعب وتسليطه على الشعوب الأخرى، والمراد بالمبدأ الثالث أن رأي الأغلبية هو الذي يصبح مشروعا وقانونا." وسياسية مثل هذه لن تخلو في نظر إقبال من الظلم والفساد والطغيان

وينقد إقبال العلمانية الأصل الذي قامت عيه الديمقراطية ففصل الدين عن الدولة، خطر كبير على الإنسانية، فإذا انفصل الدين عن السياسة والحكم لم يبق إلا حكم جنكيز خان الظالم، ويقول(إقبال ، 2017، الصفحة 438):

يا لعبة من دمقراطية طلبت عرش الملوك بما أبدته من ورع

كانت حكاية فصل الدين آخرها إن السياسة جنكيزية الجشع

ويؤكد إقبال أن المجتمعات الغربية الموغلة في المادية أصبحت تعاني من فراغ روحي، حيث أصبحت السعادة مرتبطة بالمنافع واللذات، بينما ضاعت القيم الروحية التي تمنح الإنسان السعادة الحقيقية (إقبال، 1967، الصفحة ، 215، .216)" فالإنسان العصري وقد أغشاه نشاطه العقلي، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحية الكاملة، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس وهو في حلبة الفكر في الصراع مع نفسه، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا، ولا يعود عليه منه ألا التعب..."

2.3 نقد الاستعمار الغربي وأدواته

دفعت الحاجة إلى الموارد الأولية نتيجة التقدم الصناعي في أوروبا إلى احتلال أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي لنهب ثرواته، والغريب أن هذا الاحتلال أنما تم تحت شعار نقل المدنية والتحضر لهذه الشعوب، والحق أن الكثير من المفكرين المسلمين عملوا على مواجهة الاستعمار الغربي وكشف نواياه منهم الأفغاني، وقد "اتخذ أقطاب الحركة الإصلاحية موقفاً حاداً في مواجهة المستعمِر الغربي، والكشف عن نواياه الخبيثة، ومساعيه لنهب ثروات هذه الشعوب، فنجد الأفغاني (1838-1897) ينتقد الاستعمار الانجليزي ويقول: (الأفغاني ، 2002، الصفحة

344). " فما زال الطمع الهائل مشبوعا به رأس كل انجليزي ويرى كل بقعة غنية كالهند أحق بها الانجليز من أهلها، وكل قطر خصب كالقطر المصري الانجليز أولى به من أهله ومن أرباب الحق فيه، متى كان الأمر كذلك وهو الواقع، فلا يمكن أن يصدر عن أعمال الانجليز إلا ظلم، ولا يمكن أن تكون وسائلهم غير المكر والخديعة " .

إقبال بدوره وهو الذي عاش في أوروبا واختبرها عن قرب اتخذ موقفا حادا من الغرب الاستعماري، فقد (حنفي،2009، الصفحة 335)"استبعد الإفرنج الناس ووضعوهم في قيود من حرير وحديد ". وعمل على كشف عن أطماعه وادعائه أنه ينقل التمدن للمسلمين، فالاستعمار الغربي سواء أكان(حنفي،2009، الصفحة 335) "المستعمر المباشر كالهند إلى الاستيطان كفلسطين إلى الانتداب مثل مصر، حجة الاستعمار أن شعوب المستعمرة غير قادرة بمفردها على التمدن، بالرغم من أنها صاحبة تاريخ عريق، ولها من التمدن الخاص بها وليس بالضرورة التمدن الغربي من خمر نساء وخمور ...."

ويكشف الازدواجية القائمة في تصور المستعمر الغربي، ويفضح تناقض الحضارة الغربية التي تدعي الدفاع عن القيم الإنسانية مثل الحرية والعدالة، لكنها في الواقع تمارس الاستعمار والقهر على الشعوب الأخرى فيقول: (إقبال،2002، االصفحة55)

- يحكم الاستعمار القيد على العبيد، ويعد ذلك حرية لهم

- وعندما رأى شعارات الجمهورية البراقة أسدل الستار على الملكية

- وقال إن السلطة جامعة للأقوام فبدا نقصها

- لا يستطيع أحد أن يطير في فضائها، ولا يستطيع أحد فتح بابها

- وقال للطائر المحبوس في القفص: ابن عشك في منزل الصياد

- لان كل من يبني عشه في الصحراء والمروج، لا يأمن النسور والشاهين

كما أن وعي إقبال ومعاصرته للكثير من النكبات والويلات التي عاشها العالم الإسلامي مكنته من الكشف في وقت مبكر عن تلك الحركات والمؤسسات التي كان يستخدمها الغرب لخدمة أغراضه الاستعمارية كالصهيونية، والتي يعرفها بأنها (خليل عبد الرحمن ، 1405هـ ،الصفحة 33) " حركة تقصد إقامة دولة يهودية في فلسطين وما جاورها من البلاد في عرب أسيا " وقد تنبه إقبال إلى الضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية وانقسامها وضعف حكامها واعتمادهم على غيرهم، فيحث أهل فلسطين على الاعتماد على ذاتهم. ويقول (إقبال، 2017 الصفحة 110):

لا يزال الزمان يصلى بنار لم تزل في حشاك دون خمود

لا دواء بلندن أو جنيوا بوريد الفرج كف اليهود

ومن الرق للشعوب نجاة قوة الذات وازدهار الوجود

ويتوقف إقبال عند دعوة القومية الوطنية التي انتشرت في وقته في العالم الإسلامي وكيف استخدمتها الصهيونية والاستعمار الغربي لتفريق المسلمين ويقول (اقبال، 2014، الصفحة 87):

:

قطعوا الأرحام بين الإخوة صيروا الأوطان أس الآمة

قدسوا الأوطان إعجابا بها قسموا الإنسان أسرابا بها

طلبوا الجنة في بئس القرار فاحلوا قومهم دار البوار

ويلوم أصحاب النزعة الفرعونية والطورانية وغيرهما من النزعات التي مزقت الآمة الإسلامية إلى أوطان شتى، بل يرى أن هذه الدعوة صنم يعبد من دون الله وينشد (اقبال، 2014، الصفحة 79):

نحن في الإسلام أبناء الخليل من أبيكم خذ إذا شئت الدليل

أمم قد عبدت أوطانها وبنت من النسب بنيانها

أترى الأوطان أصل الأمم تعبد الأرض بها كالصنم؟

ويدعو إقبال شعوب الشرق للنهوض والثورة ضد هذا المستعمر الغربي، ويشكو ترك فريضة الجهاد، وانتشار الخوف من الموت في نفوس المسلمين، ويقول (اقبال، 2007، الصفحة 106):

جهاد المؤمنين بهم حياة ألا إن الحياة هي الجهاد

عقائدهم سواعد ناطقات وبالإعمال يثبت الاعتقاد

وخوف الموت للأحياء قبر وخوف الله للأحرار زاد

خاتمة:

إن من أهم الأعمال التي قام بها إقبال ـــ إلى جانب إعادة الاعتبار والثقة في التراث الإسلامي، والعمل على تجديد الفكر الديني ـــ نقده للفلسفة والحضارة الغربية، ولقد مكنته ثقافته واطلاعه الواسع على الفكر الأوروبي ومنجزاته، من الوقوف على عيوب الفكر والحضارة الأوروبية فناقش وحلل أفكار ومقولات الكثير من الفلاسفة الأوروبيين من أمثال ديكارت وكانط وهيجل ونيتسه وبرغسون وبيكون وغيرهم، بمنهج تحليلي نقدي قادر على إقناع المثقف المسلم والمثقف الأوروبي على حد سواء. فبين تهافت مقولاتهم ودحض حججهم.

كما عمل على بيان الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، وهي أسس في أصلها مادية لا روح فيها، وهذا ما يهددها في وجودها، فكيف نجعلها نموذجا لتقدمنا؟ فان أخشى ما كان يخشاه إقبال هو ذلك الانبهار بالغرب والسرعة التي ينزع بها المسلمون نحوه وأن يكون هذا النزوع عائقا تقدم المسلمين،

إن القول إن الحل الوحيد لتحقيق التقدم والنهضة هو التخلي عن التراث الإسلامي واستبداله بنماذج وقيم غربية كما يقول أصحاب التيار التغريبي في الفكر الإسلامي؛ يؤدي في نظر إقبال إلى فقدان الهوية والاغتراب، فلقد ببنت الحضارة الغربية أشياء عظيمة، بنت مدن، ولكنها لم تبنِ النفوس. أما الإسلام فجاء لبناء للإنسان. أن الخروج من التخلف الذي تعيش في ظله الأمة الإسلامية في نظر إقبال ليس بارتماء في أحضان الغرب بل بإعادة الاعتبار للتراث الإسلامي وتجديده، فعلى المسلمين أن يثقوا في قيمهم وتراثهم، فالإسلام لم يكن يوما عائقًا أمام التقدم، بل أنشأ حضارة عظيمة، والمطلوب ما اليوم هو إعادة بناء الفكر الإسلامي على أسس قوية، بحيث لا يكون تابعًا لأي ثقافة أخرى، بل يكون مجددا مجتهدا.

المصادر والمراجع

المصادر

أبو الأعلى المودودي، نحن والحضارة الغربية، دار الفكر، دمشق

أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ط4، دار القلم، الكويت،1983،

جمال الدين الأفغاني: خاطرات جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة ط1، دار الشروق، القاهرة، 2002، ج 6،

حسن حنفي، محمد إقبال فيلسوف الذاتية، ط1 ب: دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009

خليل عبد الرحمن عبد الرحمن، محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية رسالة دكتوراه جامعة مكة المكرمة،1405هـ

خير الدين التونسي، السالك إلى أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تح: رحاب حضر عكاوي، ط1، دار الفكر العربي بيروت 1993

رافعة رافع الطهطاوي الأعمال الكاملة للطهطاوي، تح محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973، ج1

طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، الجزء الأول

عبد الوهاب عزام: محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، مطبوعات باكستان (د سنة)

محمد إقبال، تجديد الفكر الديني تع: عباس محمود، ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،1967

محمد إقبال، ديوان أسرار ورموز، تع: عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي، 2014

محمد إقبال بيام الشرق تع عبد الوهاب عزام مؤسسة هنداوي، 2017ن المملكة المتحدة

محمد إقبال ديوان محمد إقبال، إعداد سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير دمشق،2007
محمد إقبال، ضرب الكلم،تع: عبد الوهاب عزام مؤسسة هنداوي القاهرة، 2017

محمد إقبال: مثنويات محمد إقبال تع يوسف عبد الفتاح فرج، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2002، القاهرة